

# المصنفون

## الأنديلس: رؤى للعالم

شارك في هذا العدد:

- |                  |                     |                    |
|------------------|---------------------|--------------------|
| عبد الواحد أغمير | زين العابدين بنطاهر | محمد مفتاح         |
| أحمد شحلان       | عبد الرحيم العطاوي  | سالم يفوت          |
| محمد الشريف      | سعيد ابن الأحرش     | عبد الله إبراهيم   |
|                  | محمد حفي            | شرف الدين ماجدولين |
|                  | أحمد سراج           | مبارك لمين         |

Al Manahil - ISSN : 085170253 - Dépôt légal : 1974/6 - Juillet 2003 - Prix : 20 Dh

# مسلسل اندماج البربر في المجتمع الأندلسي

محمد حقي\*

عند فتح الأندلس واستقرار المسلمين الجدد بها، كان البربر يشكلون أغلبية القادمين الجدد، فكان منطقياً أن يتصدروا هذا المجتمع الجديد ويحددوا كثيراً من معالمه. إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث - على الأقل بوضوح -، إذ لم يكن ميزان القوة مرتكزاً على العدد والكثرة أو القلة. فالنموذج الجديد للمجتمع الإسلامي شرقاً وغرباً أصبح يرتكز على نموذج عربي مطعم بتوجيهات الإسلام وتعاليمه. وهذا يفرض على كل الجماعات التي تدخل الإسلام أن تندمج في هذا النموذج. ولم يكن البربر استثناء في ذلك. فما هي الوسائل والمراحل التي مرت منها هذه العملية؟ ومن أجل تأطير كلامنا وحصره والابتعاد عن العموميات اخترنا أن نتوقف عند ثلاثة أسر بربرية يفترض أنها حققت الاندماج، وهي أسرة بنو الزجالي وبنو ذي النون وبنو أبي عيسى. ومن خلال تطورها يمكن استنتاج بعض العناصر الخاصة بالموضوع.

\* باحث. ورزازات.

## 1. استعراض لمراحل اندماج أسر العينة

## 1.1. أسرة بنو الزجالي

تختلف المصادر حول أصل هذه الأسرة. فابن الفرضي يرى أنها من بتر البرانس دون تحديد اسم القبيلة أو العشيرة<sup>(1)</sup>. وينسبهم ابن حيان وابن سعيد إلى بني يطف من نفزة<sup>(2)</sup>. أما ابن حزم فيعتبرهم من مديونة<sup>(3)</sup> ويرى ابن خلدون أنهم من ورفجومة<sup>(4)</sup>. وتتفق هذه الآراء حول انتمائهم إلى البتر وبالذات إلى زناتة، لكنها تختلف حول اسم القبيلة أو العشيرة، ورغم إقرارنا بشهرة هؤلاء المؤرخين في دقة النقل والتحري، فإننا نرجح ما ذهب إليه ابن حزم لتخصصه في علم الأنساب، وهو يؤكد أن بني الزجالي من مديونة.

يبدو أن هذا الفرع من مديونة قد عبر إلى الأندلس في دفعة طارق بن زياد أو التي جاءت بعدها مع ترجيح الدفعة الثانية بناء على الموطن الذي نزلوه وهو تاكرنا. مادام أغلب مرافقي طارق قد نزلوا في الثغور الشمالية<sup>(5)</sup>. ويبدو أن أعداد هذه الجماعة كانت كبيرة. بحيث تكفي لكي تعيش في ظروف عادية وتحمي نفسها دون أن تحتاج إلى موالة إحدى القبائل العربية، كما أنها قد تكون حصلت على أراضي جيدة تمكنها من جمع ثروة تمكن مؤسس هذه الأسرة من التعلم والمشاركة في حركات السلطة المركزية كلما دعا إلى ذلك داعي الجهاد أو الفوضى (الثورات والاضطرابات الداخلية).

يدعى مؤسس هذا البيت (آل الزجالي) محمد بن سعيد، ويضيف ابن حيان أن اسمه وارشكين ويعرف بحمدون ويلقب بالأصمعي<sup>(6)</sup> «لعنايته بالأدب وحفظه للغة، وكان من أقوم أهل زمانه بها، وكان له حظ وافر من البلاغة ونصيب حسن من صوغ القريض»<sup>(7)</sup> و«كان محمد بن سعيد هذا من

أحد عجائب الدنيا في قوة الحفظ، يضرب بحفظه الأمثلة»<sup>(8)</sup>. ويذكر أن أحد الشعراء جاءه مادحا فحفظ شعره وهو يلقيه ومازحه بإنكار كون القصيدة من نظمه قبل أن يخبره بالحقيقة<sup>(9)</sup>، وواضح أن محمد بن سعيد هذا قد قضى وقتا طويلا في التعلم والتلقي رغم أننا لا نملك معلومات حول مشايخه وأماكن تعلمه.

كان أول اتصال لمحمد بن سعيد بالأمويين يعود إلى إحدى غزوات الأمير عبد الرحمن II (206هـ/822م - 238هـ/853م) عندما تعثرت به دابته فامتل ببيت شعر لم يتذكر سوى عجزه، فافتقد الصدر عند كل رجال المعسكر، فلم يجده إلا عند محمد هذا<sup>(10)</sup>. فاستدعى إلى السراق «فأعجب الأمير ما كان عنده واستخصه ثم استكتبه بعد حين لسره»<sup>(11)</sup>. وقد عين في البداية كاتباً للوزراء ثم استعفى، فعينه الأمير في كتابته الخاصة<sup>(12)</sup> حيث استمر حتى وفاته عام 228هـ/844م أو 232هـ/848م<sup>(13)</sup>.

تمكن محمد بن سعيد بدخوله في خدمة الأمويين من الالتحاق بأشراف الدولة، وأسس بيتا من بيوت الشرف بقرطبة<sup>(14)</sup>. وقد انتقل إلى قرطبة وفشا فيها نسله وصار لهم ريبض خاص ومقبرة بالمدينة<sup>(15)</sup>. وسيتعاقب أبناء الزجالي في كتابة الدولة والوزارة حتى وفاة آخر ممثليهم في الجهاز الحاكم عام 375هـ/986م<sup>(16)</sup>.

قد يبدو صعود محمد بن سعيد صدفة، إلا أن التمعن في تكوينه الأدبي الرفيع وقوة ذكائه وانكبابه على الدراسة وإتقان أسس مهنة الكتابة، يجعلنا نفترض أن يكون قد وضع نصب عينيه تحقيق هذا الهدف، فتحين الفرص التي واثته في هذه المناسبة، وقد يكون قام بعدة محاولات فاشلة قبل نجاحه في هذه المرة. لقد كان سلاحه في فرض نفسه على المجتمع الأندلسي العلم وخاصة

الثقافة الأدبية واللغوية . وكان أنجع سلاح حقق له الاندماج فيه وفرض مكانته وأسرته .

## 2.1 . أسرة بنو ذي النون

ينتمي بنو ذي النون إلى قبيلة هوارة<sup>(17)</sup> . وينتسبون إلى حمير بالحلق<sup>(18)</sup> . استقر جداهم السمح بن ورد بقرية أفاقلة بكورة شنت برية منذ جوازه مع طارق بن زياد<sup>(19)</sup> . لكن الجد الذي تنتسب إليه الأسرة كان يسمى زنون وهو اسم شائع في البربر، فتصحف مع مرور الزمان، وصار ذو النون العربي<sup>(20)</sup> .

إن استقرار هذه الأسرة داخل عشيرة كثيرة العدد وفي منطقة الثغر الأوسط قد وفر لها ظروفًا ملائمة لتشارك في حماية الحدود الإسلامية منذ وقت مبكر، فاكتمت من هذا العمل ثروة مادية ومعنوية، فهي قد جمعت الأموال، وراكت الأراضي، وصارت من أغنياء الثغر، بل تصدرت جماعتها وصارت من الوجهاء، وفي نفس الوقت كسبت شهرة واسعة في ميدان الحرب والفروسية والشجاعة، وهذه خصلة تلعب دور السحر في الأندلس عامة وفي الثغور خاصة، وبإمكانها أن تفتح لصاحبها كل الأبواب<sup>(21)</sup> .

كان اتصال الأسرة بالسلطة الأموية على عهد الأمير محمد ( 238هـ / 853م - 273هـ / 886م ) عندما مر بمواطن ذي النون عند عودته من الثغر الأعلى، فمرض له خصي، فتركه لزعيم الأسرة سليمان بن ذي النون ليمرضه، فعالجه ثم حمله إلى قرطبة ف«أجزل صلته وأسجل له على ناحيته وارتهن منه موسى ولده»<sup>(22)</sup> . ولا تذكر لنا المصادر تاريخ هذا التسجيل . إلا أننا نملك السنوات التي سافر فيها الأمير إلى الثغور الشمالية . فقد قاد ثلاث حملات إلى طليطلة أعوام

239هـ / 854م و 240هـ / 855م و 244هـ / 858م<sup>(23)</sup>، ولكنه خلال هذه الحملات كان يتوقف عند طليطلة والشعر الأوسط، والرواية السابقة تؤكد على أنه اتصل ببني ذي النون عند عودته من الشعر الأعلى. والرحلة التي قام بها إلى هذا الشعر كانت عام 259هـ / 873م<sup>(24)</sup>. ولذلك نرجح هذا التاريخ. وما يساعد على ذلك هو أن الحدث ثم قبل 260هـ / 874م وهي السنة التي كلف فيها الأمير بني ذي النون بمعاينة وتأديب طليطلة، وفي السنة التي قبلها كان الشعر مضطرباً، في حين قبض على مطرف بن موسى بن قسي وبنيه وقتلهم في قرطبة عام 259هـ<sup>(25)</sup>. وهذا يعني أن الأسر التي كانت تتعاون مع السلطة الأموية في الشعر قد صارت ضدها، فكان على الأمير البحث عن حليف جديد. ودون شك توصل بمعلومات عن قوة ذي النون، فافتعل حادثة الخصي جلبهم إلى جانبه، فعين سليمان واليا في هذه السنة.

لقد تحقق لبني ذي النون حلم الدخول في أسلاك الدولة وأشراف الأندلس، لذلك ستدخل الأسرة تاريخ الأندلس وتشارك في أحداثه بقوة منذ نهاية القرن 3هـ / 9م حتى ضم المرابطين للبلاد.

لقد تحقق الاندماج لبني ذي النون بفضل الثروة المادية الكبيرة والفروسية والقتال في الحروب ودعم السلطة الأموية.

### 3.1 . أسرة آل أبي عيسى

ينحدر آل أبي عيسى من فرع أصادة المصمودي من قرية لدية قرب قصر عبد الكريم شمال المغرب الأقصى<sup>(26)</sup>. وينفرد ابن خلدون بنسبتهم إلى مصامدة الأطلس الكبير<sup>(27)</sup>، وهو خطأ منه كما أظهرت أصول الهجرات إلى الأندلس<sup>(28)</sup>

وتتفق المصادر على كون هذه الأسرة قد استقرت بالأندلس منذ الفتح، غير أنها تختلف حول اسم أول من اجتاز منها. فالقاضي عياض يقول إنه يحيى بن وسلاس وابن أخيه نصر بن عيسى ضمن حملة طارق بن زياد ثم التحق بهما كثير<sup>(29)</sup>. أما ابن خلكان فيرى أن الداخل هو كثير بن وسلاس<sup>(30)</sup> ويوافقه كل من ابن الخطيب وابن عبد الملك<sup>(31)</sup>. ويظهر أن أغلب الروايات تتفق حول كون كثير بن وسلاس هو الداخل مع طارق واستقر في قرطبة مشكلاً إحدى الأسر الكبرى من الموالي البربر.

ارتبط آل أبي عيسى بليث كنانة بالولاء، وتختلف المصادر حول سببه. فالبعض يرى أن وسلاس أسلم على يد يزيد بن عامر الليثي الكناني<sup>(32)</sup>، ويرى آخرون أن آل أبي عيسى نزلوا بمنزل ليث كنانة فانتموا إليهم بالحلف<sup>(33)</sup>. وكيفما كان سبب الولاء فقد حصل إما بالجوار أو بالإسلام.

استقر آل أبي عيسى بقرطبة وسرعان ما شكلوا إحدى الأسر الكبرى في المدينة<sup>(34)</sup>. وعند وصول عبد الرحمن الداخل إلى قرطبة عام 138هـ/756م كان يحيى بن كثير ممن استقبله من وجهاء قرطبة، حيث خرج إليه، وربما بايعه، وحمله رسائل إلى أهل قرطبة يدعوهم فيها دون شك إلى بيعته<sup>(35)</sup>.

وقد صار يحيى من المقربين من الحاكم الجديد<sup>(36)</sup>. وشغله عبد الرحمن الأول في السفارة وولاية الجزيرة وشدونة<sup>(37)</sup> وسيموت والياً في الجزيرة عام 178هـ أو 180هـ/796م أو 797م.

لكن مجد الأسرة وفرضها لنفسها على المجتمع الأندلسي لن يتحقق إلا على يد يحيى الليثي الذي ولد عام 151هـ أو 152هـ/769م<sup>(38)</sup> وبدأ تعليمه في

حلقات قرطبة العلمية<sup>(39)</sup> ثم رحل إلى المشرق ودرس على مالك بن أنس وتلامذته في الحجاز ومصر والقيروان<sup>(40)</sup>. وعندما عاد من رحلته المشرقية استقر بقرطبة وبدأ يشق رحلة المجد والشهرة في عالم العلم بالأندلس، لكن أحداث الربض عرقلت مشاريعه لبعض الوقت<sup>(41)</sup>. وبعد عفو الحكم الربضي عليه صار يحيى بن يحيى من بين من تدور عليهم الفتيا في قرطبة والأندلس عامة، بل صار زعيم المفتين<sup>(42)</sup>. وارتبط انتشار المذهب المالكي بالأندلس باسمه وجهوده<sup>(43)</sup>. ولما مات ترك المشعل لأبنائه وحفدته فتداولوه حتى وفاة آخر من نبغ من هذا البيت عام 367هـ/977م<sup>(44)</sup>.

استغل آل أبي عيسى ثروتهم واتصالهم المبكر بالعرب وكذلك بالسلطة الأموية ثم أساسا نبوغ زعيمهم يحيى بن يحيى في الفقه المالكي، ليحصلوا على مكانة متميزة داخل المجتمع الأندلسي جعلت منهم أحد أشرافه ووجهائه.

## 2. استنتاجات عامة

أظهرت دراسة تطور عملية اندماج الأسر أعلاه أن هذا الأمر تطلب وقتا ليس بالقصير (ما بين 100 و 170 سنة). وهذا يبين بطء العملية وصعوبتها، لكن أيضا الإلحاح والإصرار الذي واصل به البربر عملهم دون كلل أو ملل.

إن مواطن الأسر الثلاث: تاكرنا وقرطبة والثغر الأوسط، توضح أن عملية اندماج البربر كانت تحدث في كل المجتمع الأندلسي وفق وتيرة متشابهة، مع أن هناك فارقا زمنيا، إذ يلاحظ أن العملية كانت أسرع في المراكز الحضرية منها في العالم القروي (قرطبة ≠ تاكرنا وشتت برية). كما أنها كانت أسبق في الوسطة والجنوب وتأخرت بحوالي نصف قرن في الثغر الأوسط، مما يوضح أن الهوامش كانت أقل تأثرا بما يشهده المجتمع الأندلسي من تطورات.

كانت بداية عملية الاندماج مع الفتح الإسلامي للأندلس، فكل الأسر التي درسناها شاركت في الفتح وحصلت على بعض ثماره من خلال الأرض التي حصلت عليها والتي ستكون مصدر ثروتها وقوتها المادية، وهي أيضا قد كسبت دعما نفسيا تمثل في شعورها بحق الاستفادة من ثمار مجهودها. وأنها لا تقل عن القبائل العربية أهمية.

واتجه اهتمام هذه الأسر إلى تملك الأسلحة التي يتفاخر بها العرب، فحاولت الارتباط بالعرب برابطة الدم، فهؤلاء بنو ذي النون يدعون الأصل العربي من خلال إعلان انتمائهم إلى قبائل حمير اليمانية. أما بنو أبي عيسى فارتبطوا بالعرب بموالاتة ليث كنانة والولاء يمنح المولى نفس الحقوق التي لمولاه خاصة إذا كان ولاء حلف أو إسلام. واتخذ الاهتمام بالتعريب شكل تبني أسماء عربية والتخلي عن الأسماء المحلية. فهذا محمد بن سعيد الزجالي يتخلى عن اسمه الأصلي وارشكين، وبنو أبي عيسى ينسون أسماءهم المصمودية مثل وسلاس لصالح أسماء عربية، أما بنو ذي النون فحوروا الإسم البربري زنون ليصير ذو النون.

كانت الفروسية عنصراً أساسياً في النظام القبلي العربي والمجتمع الأندلسي أيضاً، لذلك حظيت بعناية البربر بدورهم. فبنو ذو النون فرسان شجعان يحمون الثغر من هجومات الأعداء، ومحمد بن سعيد الزجالي اتصل بالأمير عبد الرحمن II أثناء مشاركته في حركة عسكرية، كما أن تعيين يحيى ابن كثير واليا على الجزيرة يفترض فيه أن يكون فارساً شجاعاً كما هو متعارف عليه في خصال ولاة الأندلس في عصره.

حظي التكوين الثقافي بعناية خاصة من قبل مؤسسي الأسر موضوع  
الدرس، حيث نجد يحيى بن يحيى الليثي يتفقه في المذهب المالكي في  
الأندلس والمشرق، وصار من أكبر رواة الأندلس للموطأ وزعيم المذهب في  
البلاد. وكان محمود بن سعيد الزجالي يتقن البلاغة والعربية والأدب والشعر  
وبلغت محفوظاته مستوى عالياً فاق به أقرانه. وسلاح العلم كان السلاح الناجع  
الذي فتح لهذين الرجلين أقالم المجتمع الأندلسي المتعددة وصاروا ضمن رجاله  
وأشرافه.

حتى وإن كانت نتائج الخطوات السابقة ناجعة وناجحة، فإنها لا تكفي  
لتحقيق الغرض المطلوب، إذ يفترض أن تحصل الشرعية السياسية التي يحيطها  
المجتمع الأندلسي بهالة من الاحترام والتقدير، فهي بمثابة مفتاح سحري يذلل  
كل الصعاب. وهكذا نجد البربر واعين بأهميتها فيسارعون للحصول عليها.  
فهذا يحيى بن كثير يبايع عبد الرحمن الداخل ويقوم بالدعاية لسلطته في  
قرطبة حتى قبل سيطرته على السلطة. ثم تولى له بعد ذلك السفارة والولاية،  
وقبل ابنه يحيى بن يحيى أن يكون مفتياً وداعية لنظام حكم حفيده عبد  
الرحمن II مقابل الحصول على الزعامة العلمية في قرطبة والأندلس. ونفس  
المجهود يبذله محمد بن سعيد الزجالي من أجل أن يتحول إلى كاتب لعبد  
الرحمن II ويصير من أشراف الدولة. ورغم تفوق آل ذي النون العسكري، فقد  
بحثوا عن شرعية السلطة الأموية، فسعوا إلى أن يعينوا كولاة على منطقتهم مع  
أن هذا الأمر كان قد تحقق لهم فعلياً ومنذ زمان. وبعد هذا التعيين صاروا  
يتفاخرون ويتنافسون مع أقرانهم البربر والعرب.

إن هذه الخطوات التي قطعها البربر من أجل تحقيق الاندماج في المجتمع  
الأندلسي توضح أن المجتمع الأندلسي مجتمع معقد إلى حد ما، إذ صارت

تحكمه عوامل موجهة متنوعة. ولو حاولنا أن نصنفها لوجدنا أنها؛ على الأقل، تجد أصولها في المجتمع العربي والثقيل الذي يمثله العرب والإسلام وما حمله لهذا المجتمع، ثم وضعية الأندلس كثرغ يفرض على سكانه تصرفات خاصة.

لعل دراسة مسلسل اندماج الأبر الثلاث في المجتمع الأندلسي، وكونها من مناطق مختلفة في الأندلس، يعطينا شرعية للحديث عن اندماج بربر الفتح في المجتمع الأندلسي مع انتصاف القرن 3هـ/9م، حيث صاروا جزءاً منه وفقدت الكثير من الأصول البربرية، ولم يبق معروفاً منها إلا تلك الخاصة ببعض الأبر الكبيرة.



### هوامش

- (1) نقلا عن ابن حيان، المقتبس، ج 2، لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1971. ص. 172.
- (2) نفسه، ص. 171، ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، القاهرة، ج 1، ص. 330.
- (3) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص. 500.
- (4) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت، 1988، ج 4، ص. 151.
- (5) انظر أطروحتنا، البربر في الأندلس، كلية الآداب الرباط، 1996، ص. 56.
- (6) ابن حيان، المرجع السابق، ج 2، ص. 171.
- (7) نفسه، ص. 172.
- (8) نفسه، ص. 173.
- (9) نفسه، ص. 173-174، تذكرنا بحادثة مشابهة وقعت لأبي تمام شاعر المعتصم العباسي.
- (10) نفسه، ص. 172، ابن سعيد، المرجع السابق، ج 1، ص. 330.
- (11) نفسه، ص. 173.
- (12) نفسه.
- (13) نفسه، ص. 174 و 216.
- (14) نفسه، ص. 170-171.

- (15) المقرري، نفع الطيب، مطبعة السعادة، القاهرة، 1979. ج 5، ص 366. ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، القاهرة، 1954، ج 1، ص 279.
- (16) عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فضالة، 1982، ج 7، ص 296. وعن أهم الأسماء في الأسرة انظر أطروحتنا السابقة، ص (210-208).
- (17) ابن حزم، الجمهرة، ص 500.
- (18) ابن حيان، المرجع السابق، ج 3، ص 18.
- (19) نفسه.
- (20) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، دار الكشف، 1956، ج 2، ص 177. ابن عذارى، البيان المغرب، ج 3، ص 276 - مفاخر البربر، المطبعة الجديدة، الرباط، 1932، ص 43.
- (21) انظر أطروحتنا السابقة، ص 88-87.
- (22) ابن حيان، المرجع السابق، ص 18 - ابن سعيد، المرجع السابق، ج 2، ص 11. ابن بسام، الذخيرة، دار الثقافة، بيروت، 1979، ج 7، ص 143-142.
- (23) ابن عذارى، المرجع السابق، ج 2، ص 96-94.
- (24) نفسه، ص 101.
- (25) نفسه.
- (26) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، دار الثقافة، بيروت، ج 1، ص 188 - مفاخر البربر، ص 60 - ترتيب المدارك، ج 3، ص 379.
- (27) ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص 299.
- (28) انظر فصل الهجرات من أطروحتنا السابقة.
- (29) عياض، المرجع السابق، ج 3، ص 379.
- (30) ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، ج 6، ص 143.
- (31) ابن الخطيب، الإحاطة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1975، ج 4، ص 373. ابن عبد الملك، المرجع السابق، ج 1، ص 190.
- (32) عياض، المرجع السابق، ج 3، ص 379.
- (33) ابن الخطيب، المرجع السابق، ج 4، ص 373.
- (34) أخبار مجموعة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 84.
- (35) الخشني، أخبار الفقهاء والمحدثين، المجلس الأعلى للأبحاث، مدريد، 1992، ص 348.
- (36) ابن خلدون، المرجع السابق، ج 6، ص 299.
- (37) الخشني، المرجع السابق، ص 348.
- (38) نفسه، ص 247.

(39) عياض، المرجع السابق، ج 3، ص 380. الخشني، المرجع السابق، ص 348.

(40) نفسه.

(41) نفسه، ص 392 و 123 - الخشني، المرجع السابق، ص 360-361.

(42) ابن حيان، المرجع السابق، ج 2، ص 180.

(43) انظر أطروحتنا، ص 250-251.

(44) كان يحيى بن عبد الله آخر رجال هذا البيت وتولى قضاء بجانة والبيرة وخطبة الرد، انظر عياض،

المرجع السابق، ج 6، ص 108.

